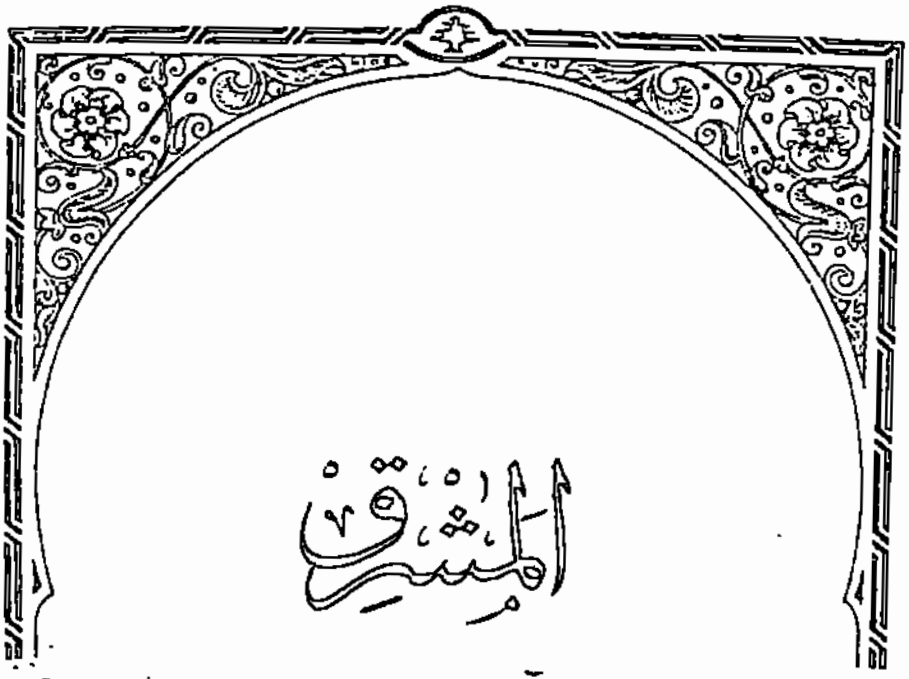

السنة الثامنة والخمسون ... ٢٣ ـ شباط ١٩٦٤

لغة العرب

تمازجها مع اللغات الأخرى

نموذج من تحقيق العلامة دوزي Dozy في معجمه

بقلم ظافر القاسمي

ليست معاجم اللغة الفاظاً مرتبة على حروف الهجاء ، يرجع اليها القارئ بغية تفهم معانيها ، ومعرفة سليمها من سقيمها ، وصحيحها من فاسدها فحسب . وانما هي في نظر علماء الاجتماع : روح الوطن ولحمه ودمه . ولقد اكد هذا المعنى الاستاذ شفيق جبري في مواطن متعددة من آثاره القيمة ، وخصه بمقال مفرد نشر خلال عام ١٩٦٢ في جريدة الايام الدمشقية .

ولقد بدا لي منذ مدة أن أجمع ، جهد الطاقة ، الالفاظ والمصطلحات ، التي تتعلق بنظام الحكم في الاسلام ، واعتمدت في سبيل هذا العمل الطويل ، مراجع متعددة ـ من بينها معجم (دوزي Dozy) الذي سماه : ملحق المعاجم العربية Supplément aux dictionnaires arabes. .

والعلامة (دوزي) غني عن التعريف ، فرنسي الاصل ، هاجرت أسرته الى

هولندة خلال القرن السابع عشر . وولد وتوفي خلال القرن التاسع عشر (١٨٢٠—١٨٨٣) . وانفق حياته المباركة في دراسة اللغة العربية وعلومها . وكان له ما يشبه الاختصاص في تاريخ العرب في الاندلس . خلال الضيافة التي استمرت ثمانية قرون . فكانت . على حد تعبير الامير شكيب ارسلان رحمه الله . تلتي ضمر الاسلام . في كتابه الحليل . الذي سماه (الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية) .

ولقد تميزت آثار هذا العلامة بالتحقيق الدقيق . والبحث العميق . والرجوع الى المصادر الموثوقة . وصحة الاحكام . في اغلب المواضع التي هدف فيها الى الترجيح . ولم يجد حرجاً في تخطئة نفسه . والرجوع الى الصواب في كثير من المواطن التي تبين له وجه الحق فيها[1]

وليس غريباً ان يعيب على (دوزي) فهم معاني بعض الالفاظ او الجمل . فقد غاب عنه بقرون . عن بعض أئمة العربية انفسهم . ولا يخلو معجم متأخر من الاشارة الى اخطاء معجم متقدم . ومن اواخرها (الجاسوس على القاموس) وكثيراً ما يمر بك في اللسان او التاج او غيرهما قولهم : وقد وَهِمَ الجوهري . واخطأ ابن منظور . واشال هذه التعابير : التي تدل على سعة لغة العرب وغناها.

ولقد دهشت خلال تتبعي لهذا المعجم الفريد من امور كثيرة . لا اشير اليوم الا الى اثنين منها :

فالاولى : تحقيقه لبعض الالفاظ والجمل : في وقت لم تكن فيه المطبعة العربية قد نشرت هذا الفيض من الكتب المخطوطة : حيث عمد الى مقارنة ما يشتبه عليه . على مخطوطات موزعة في المكتبات بين لندن واكسفورد وباريز والاسكوريال وبرلين وليدن وغيرها : في زمان لم يكن فيه قطار ولا طائرة : ولم يعرف التصوير الشمسي . فاذا ما عرفت ما في الرحلة : في ذلك الزمان : من الاخطار والمشاق : أدركت كيف تكون (الصوفية العلمية) — ان صح هذا التعبير .

وأما الثانية : فقد اتضح لي : خلال دراسة المعجم : ومما ورد فيه من شواهد : انه كان يتقن عدة لغات ، ويعرف عدة لغات : احصيتها فوجدتها قد بلغت حتى الآن (وانا في الربع الاول من المجلد الثاني من معجمه) تسع عشرة لغة : بعضها من اللغات الميتة ، وبعضها من اللغات الحية : هي : الآرامية :

(١) الامثلة على ذلك كثيرة في المعجم . راجع مثلاً : ص ٨٠٦ — العمود الاول — السطر الثاني وما يليه .

والسريانية ؛ والعبرية ؛ والسلتية ؛ والاغريقية . واللاتينية . والهندية ؛ والفارسية . والتركية ؛ والفرنسية ؛ والانكليزية ؛ والالمانية ؛ والاسبانية . والايطالية . والبرتغالية . والبربرية . والعربية الفصحى . والعربية العامية (وهي في الواقع عدة لغات) والهولندية لغته الاصلية .

ويقيني ان كثيراً من مؤلفات (دوزي) جدير بالترجمة والنقل الى لغة العرب.

ولقد انقضى على طبع معظمها اكثر من قرن . ولم نستطع ان نستفيد من كنوزها . ومردّ ذلك . فيما يخيل اليّ . انها مجهولة حتى من الخاصة . ولا تعرف خاصة الخاصة الا بعضها . هذا فضلاً عن انها مفقودة حتى من المكتبات العامة . فلقد بحثت مثلاً عن معجمه الذي وضعه مع انجلمان ENGELMANN والذي سماه : الالفاظ الاسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية [1] في مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق . وفي المكتبة الظاهرية . وفي مكتبة الجامعة ؛ وفي مكتبة المعهد الفرنسي العلمي بدمشق Institut Français de Damas ؛ فلم أعثر عليه . ولم استطع الوصول اليه الا في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت .

دلتني دراسة هذا المعجم على كثير من الفوائد ؛ وعلمتني كيف تكون الدراسة المنهجية ؛ ودفعتني الى استزادة التنهّل والعلّ من هذا المعين الصافي . الذي نضدت لآلئه يد صائغ ماهر . يحسن التنسيق والتبويب . ويعرف كيف يغتصب انتباه القارئ.

كذلك اتضح لي ما يصنع تمازج الثقافات ؛ واختلاط الأمم ؛ في الاقتباس عن بعضها ؛ واستعارة الفاظها . واستساغة الكثير من تعابيرها . فهذا ابن حيان ؛ صاحب تاريخ الأندلس ؛ ومثله ابن بسام ؛ صاحب الذخيرة ؛ لا يجد اي واحد منهما حرجاً في ان يعرّب بعض الالفاظ الأعجمية . وفي ان يستعملها في كتبه ؛ وهما من هما في تاريخ الآداب العربية ؛ فيقولان مثلاً (قنبانية) تعريباً للفظ Campagne الاعجمي . ويعزفان عن استعمال أي لفظ عربي آخر يفيد هذا المعنى [2] ؛ وما اكثر الالفاظ العربية التي تدل عليه . وفي هذا دلالة ؛ وأية دلالة ؛ على ان المجتمع المشترك ؛ لا تتأثر عامته وحدها في استعمال الفاظ اللغة . وانما يمتد هذا الاثر الى الخاصة ؛ ولا يقف امتداد الاثر عند لغة الخطاب ؛ بل يتعداها الى لغة الكتّاب ؛ لا بل الى لغة أدباء الكُتّاب !

(1) DOZY et ANGELMANN, *Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe*, 2e édit. Leyde et Paris 1869.

(٢) راجع : المجلد الاول من المعجم — ص ٥٥١ — العمود الثاني — السطر السادس .

ولنعد الى تحقيق (دوزي) في معجمه . ولنضرب على ذلك مثلاً في لفظين : احدهما عربي انتقل الى اللغات الاخرى ، وثانيهما اعجمي انتقل الى لغة العرب.

فأما الأول : فهو لفظ (معونة)[1] . وقد ترجمها (دوزي) ابتداءً بلفظ Aider . ثم قال ما ترجمته : « ضريبة استثنائية يفرضها الأمير حينما تنفد اموال الخزانة العامة» اهـ. ونص عبارته الفرنسية :

Une contribution extraordinaire, imposée par le prince quand le trésor public était épuisé.

ثم يعقب على هذا بقوله ما ترجمته :

« ان كلمة المعونة *almoyna* تعني في كثير من الوثائق القطلانية التي تعود الى القرون الوسطى : إما ضريبة على المراكب التجارية . يستخدم حاصلها في تجهيز اسطول ليحارب العرب . واما عطاء ضوعياً مخصصاً للغرض نفسه . راجع المعجم الاسباني . ص ١٧٩ - ١٨٠ » اهـ . ونص عبارته الفرنسية :

« Dans plusieurs documents catalans du moyen âge, le mot *almoyna* signifie, soit un impôt sur les navires marchands dont le produit devait servir à équiper une flotte contre les Maures, soit un don volontaire destiné au même usage. GL. Esp. 169, 180 ».

ثم يضيف (دوزي) الى ذلك ما ترجمته :

« يرى كانال Canale » في كتابه : التاريخ الحديث لجمهورية جنوه — الجزء الثاني : ص ٣٤٤ وما بعدها : ان العلاقات فيما بين جنوه وسبتة Ceuta في القسم الاول من القرن الثالث عشر . قد وضعت الأسس : لنوع من المصارف الخاصة . تسمى المعونة la Maona : كانت تقرض الدولة . ويخيل اليّ ان شركة اخرى من هذا النوع كانت اول من استثمر مناجمنا الحديدية . وتاجرت بالحديد بالجملة : لأن هذه المستودعات . تسمى اليوم معونة maona في طشقانة » . اهـ . ونص عبارته الفرنسية :

« D'après M. Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, t. II, p. 344 et suiv., les relations de Gênes avec Ceuta dans la première partie du XIII^e^ siècle, donnèrent origine à une espèce de banque privée, appelée la Maona, qui prêtait de l'argent à l'État. Je pense qu'une autre société de ce genre fut la première à exploiter nos mines de fer et faire le commerce du fer en gros, car ces grands magasins sont appelés aujourd'hui *maona* en Toscane » (communiqué par M. Amari).

وأما ثانيهما : فهو لفظ (طارقة)[2] وقد قال دوزي عنه ما ترجمته :

(١) راجع المجلد الثاني من معجم دوزي — صفحة ١٩٢ — العمود الاول والثاني .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٠ وما يليها .

حيث ان المستشرقين قد رأوا ان هذا اللفظ ينبغي أن يعني نوعاً من السلاح ؛ فقد شقّوا حينما أرادوا تفسيره . فقد ذهب (شولتانس Schultens) الى أنه يعني الرمح ؛ ثم رأى ان اللفظ ليس الا تحويراً للفظ اليوناني δόρξ الذي يعني الدرع . وقد تبنى كل من (رينو) و (دوساسي) هذا الاشتقاق الناقص . ووجد (دوساسي) ما يؤيد رأيه في مواضع متعددة من كتاب المقريزي ؛ مما لم يدع عنده أي شك في صواب معنى اللفظ ؛ بانه الدرع ؛ ولكن الحقيقة لا تؤيد ذلك ابدا . ثم أضاف (لان Lane) مؤخراً معنى جديدا مغلوطاً ؛ الى المعاني السابقة . قائلاً ان هذا اللفظ يعني : الدبوس [1] ؛ ولو ان (لان) اطلع على الحاشية السديدة التي كتبها (كاترمير Quatremère) لكان له رأي آخر ولكن هذه الحاشية نفسها قاصرة ايضاً . لانها لا توضح معنى (الطارقة) كما لم توضح منشأ اشتقاقها . وفي رأيي (دوزي) ليس هذا اللفظ من أصل عربي . لان العربية لا تؤيد اشتقاقه منها ؛ وانما دخل اليها في عصر متأخر : ذلك لانني اعتقد ان البحث عنه لدى المؤلفين الذين سبقوا الحروب الصليبية ، بحث لا يأتي بطائل . ولأن العرب اقتبسوه من الصليبيين . وهو لا يعني شيئاً آخر غير مـا يعنيه اللفظ الفرنسي targe ؛ واللفظ اللاتيني *targa* ؛ وهو (الترس) . وسواء أكان هذا اللفظ مشتقاً من اللاتينية *targum* كما ذهب الى ذلك (دوكانج) أم من الالمانية *zarga* . فهو في كل الاحوال من أصل اوروبي ؛ ومعناه : ترس كبير ؛ طوله يزيد على عرضه ؛ يستر كامل الاجزاء السفلية من الجسم تقريباً . ان لفظ (الطارقة) العربي ؛ ومرادفه (طَرْغَة) لا يفيد الا هذا المعنى الأخير . ويمكن ان نرى ذلك في مقاطع من كتاب عماد الدين الأصفهاني الذي نقله (كاترمير) ؛ والذي يستنتج منه ان الصليبيين هم الذين كانوا يملكون هذا النوع من الدروع . ولقد أساء نقل الجملة الآتية : (لمعت بوارق بيارقه ، وراعت طوارق طوارقه) . ونقرأ في كتاب صلاح الدين : سأمحو هؤلاء الصليبيين الذين كانوا في حال يائسة (ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحاً الا النادر) . ونجد ايضاً ان امراء الصليبيين أهدوا

(١) نشر الاستاذ (كلود كاهين Claude Cahen) عـام ١٩٤٧ – ١٩٤٨ خلاصات من كتاب الطرسيي المسمى : (تبصرة ارباب الالباب ، في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ؛ ونشر اعلام الاعلام في المدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء) ؛ وسمى هذه الخلاصات Un traité d'armurerie composé pour SALADIN وترجمها الى الفرنسية ، واعتبر لفظ (الدبوس) مقابلاً لتعبير masses d'armes ولم نجد غيره فاعتمدناه . راجع صفحة ١٥ من النص العربي ، وصفحة ٣٧ من الترجمة الفرنسية – المطبعة الكاثوليكية في بيروت .

الى صلاح الدين (طارقة) . في سبوعاً المانية ولقد كان المسيحيون الاسبانيون يملكون هذا النوع من الدروع . وقد اقتبسه المسلمون منهم : فنجد مثلاً في (الحلل Holal)[1] جملة لابن البيطار . حيث روى احد الموحدين ما يلي : (فصنعنا دارة مربعة في البسط . جعلنا فيها من جهاتها الاربع صفاً من الرجال . بايديهم القنا الطوال . والطوارق المانعة . ووراءهم اصحاب الدرق والحراب صفاً ثانياً) . وكان في القاهرة شارع يسمى (حارة الطوارق) . او حارة صبيان (الطوارق) . لانه كان يقيم فيها شباب الجيش المكلفون بحمل هذا النوع من الدروع . فقد نقل (دوساسي) عن المقريزي قوله : (وهم من جملة طوائف العسكر . كانوا معدين لحمل الطوارق) وكان هذا النمط يعني في اوروبا اضافة لمدى حدار المتنقل الواقي . او لرجاً من حتب التصوير . كان المحاربون يضعون وراءه ليتقوا رشق السهام والحجارة . راجع ايضاً (فريتاج Freytag) الذي نقل هذا المقطع : « ولقد استعاض الفتاة والفرسان بالواقيات والستائر . عن الطارقات والجدران والاستحكامات الخشبية . »

وكذلك كان للفظ (الطارقة) في المشرق هذا المعنى . ويبدو انه كان كذلك في القاهرة . لان (كاترمير) يقول : ان الفضل في ايضاح هذا المعنى يعود الى (مارسل Marcel) ، اي : الجدار الواقي ... ان لفظ (ترس) قد تطور معناه ، وأضحى يفيد المعنى السابق المشار اليه ، كما يثبت ذلك المقطع الذي يوجد لدى (فريتاج Chrest. 131, II) و (طارقيات) بالجمع تفيد نفس المعنى : راجع حياة صلاح الدين ٢٠٥—٨ . وابن الاثير . الجزء الثاني عشر . ٤ : ١ . ٣ .

قلت : ويبدو لي ان أصل اللفظ عربي . لا اعجمي . كما ذهب هؤلاء المحققون من المستشرقين . ودليلي على ذلك ما جاء في القاموس والتاج : «والمِجَنّ المُطَرَّقَة كمكرَّمة . التي يطرق بعضها على بعض ، كالنعل المطرقة المخصوفة . ويقال : أطرقت بالجلد والعصب ، اي ألبست . وتُرْس مطرّق . والذي جاء في الحديث : « كأنّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ المُطَرَّقَة : اي التِّراس التي البست شيئاً فوق شيء . أراد : انهم عراض الوجوه ، غلاظها . » مادة طرق ، ج ٦ : ص ٤١٢ سطر ٣٣ وما بعده . والواضح من هذا النص ان لفظ « المُطَرَّقَة » اضيف في الحديث الى المَجَانّ ، وهي التي يُتَّقَى بها . واضافه الزبيدي الى التِّراس ايضاً . وهذا يتفق مع المعاني التي ايرادها المستشرقون.

(١) لم يزد (دوزي) في مصادر الكتاب على ان قال (ص ٢٣ من مقدمة المجلد الاول) : الحلل المشية في ذكر الاخبار المراكشية ، مخطوطة ليدن رقم ٢٤ .

ولعل التسمة (المُطَرَّقة) غلبت على الموصوف : وحُرِّفَ التسمة على الأفراد . فأضحى المطرق طارقة ايام الحروب الصليبية او قبلها . واذا صح هذا . فان اصل اللفظ عربي لا أعجمي .

ونص عبارته الفرنسية :

« Voyant que ce mot devait indiquer une sorte d'arme, les orientalistes ont été singulièrement malheureux en voulant l'expliquer. A. Schultens en a fait d'abord un javelot, ensuite une cuirasse, en y voyant une altération de (θώρηξ). Reinaud et de Sacy ont adopté cette étymologie manquée, et ce dernier a «trouvé dans Macrizi plusieurs passages qui ne lui ont laissé aucun doute sur le sens du mot», mais qui en vérité ne le prouvent nullement Dernièrement M. Lane a ajouté une nouvelle opinion erronée à celles qui avaient déjà été produites, en disant que ce terme signifie une grande masse, une masse d'armes. Il en aurait jugé autrement s'il avait connu la savante note de Quatremère, Mong. 288-9; mais cette note même est encore insuffisante, puisqu'elle n'indique ni l'origine de *târica*, ni sa signif. primitive. A mon avis il n'est pas d'origine arabe, car cette langue n'en fournit pas l'étymologie, et il s'y est introduit à une époque assez récente: je crois qu'on le cherchera en vain dans les écrivains antérieurs au temps des croisades, que les Arabes l'ont emprunté aux Croisés, et que ce n'est rien autre chose que le b. lat. targa, qui existe aussi en ital., esp. port. prov. *tarja*, fr. *targe*. Que ce mot vienne du latin *tergum* (voyez Ducange) ou du v. allem. zarga (munimen, Grimm, Deutsche Grammatik, III, 445; Diez, dans son Etym. Wörterb. der roman. Sprachen, adopte cette opinion), il est en tout cas d'origine européenne et désignait un grand bouclier oblong, qui couvrait presque toute la partie inférieure du corps. L'arabe *târica* (= طرقة scutum dans le Voc.) a le même sens; c'est ce qu'on peut voir par les passages d'Imâd ad-Dîn Isfahânî que cite Quatremère, et d'où il résulte que c'étaient les Croisés qui avaient ces boucliers (Q. a mal rendu la phrase: «لمعت بوارق بيارقه ؛ وراعت طوارق طوارقه ; traduisez: «les éclairs de ses drapeaux brillaient, et ses targes qui s'avançaient répandaient l'effroi»). Dans la Vie de Saladin, 124, 5 a f., on lit; je vis passer ces Croisés qui étaient dans un état déplorable; ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا الا النادر «presque aucun d'entre eux n'avait une targe ou une lance». On trouve encore que les princes des Croisés firent présent à Saladin de târica's, d'épées allemandes, etc. (de Sacy Chrest. I, 275). En Occident, c'étaient également les Chrétiens, les Espagnols, qui avaient cette sorte de bouclier; voyez Abbad. II, 201, 4. Les musulmans le leur empruntèrent. On rencontre

p. e., dans le Holal, 58 v, un passage d'Ibn-al-Yasa', où un Almohade raconte ceci: فصنعنا دارة مربّعة في البسط جعلنا فيها من جهاتها الأربع صفاً من الرجال بايديهم القنا الطوال والطوارق المانعة ووراءهم اصحاب الدرق والحراب صفاً ثانياً .

Au Caire il y avait même une rue nommée حارة الطوارق ou حارة صبيان الطوارق parce que c'était là que demeuraient les jeunes gens «qui à l'armée avaient la charge de porter les targes», وهم من جملة طوائف العسكر كانوا معدين لحمل الطوارق

(Macrizi dans de Sacy I.I.). En outre ce terme servait en Europe à désigner un *mantelet*. une sorte de machine composée de plusieurs madriers, derrière laquelle on se mettait à couvert des traits et des pierres, cf. Ducange. qui cite entre autres ce passage: «Pedites et equites habent fascinas sive flastea lignorum pro targonibus et mantelletis». En Orient *tárica* avait aussi ce sens, et il paraît qu'au Caire il l'a encore, puisque Quatremère dit (p. 427 b) que c'est à Marcel qu'il est redevable de la seule explication qu'il donne. à savoir: un mantelet derrière lequel les soldats se mettent à l'abri des traits et des pierres. Le mot ترس , qui signifie aussi «bouclier», a subi le même changement de signif., comme le prouve le passage dans Freytag Chrest. 131, II.

طارقيات (pl) *mantelets* etc. comme le mot qui précède. Vie de Saladin 250, 8, Athir, XII, 4, I. 3.

وبعد فهذان مثالان نموذجيان ، عن تحقيق العلامة (دوزي) في معجمه النفيس : خليقان بان ينبها علماء اللغة عامة ، ورجال المجامع خاصة : الى ان آثار المستشرقين ، على اختلاف اجناسهم واعراقهم . لم تكن كلها دوماً في خدمة الاستعمار واغراضه : ولم تكن خطأ كلها : بل تحلّى كثير منها بالتجرد العلمي ، وبالبحث عن الحقيقة الخالصة : والى ان استطلاع ما فيها . يغني المكتبة العربية . ويزودها بكثير مما فاتنا . ويكشف لنا عن كثير من نواحي ثقافتنا : ويتيح الفرصة لتصحيح ما وقعوا فيه من اخطاء مقصودة او غير مقصودة : وان نقل بعضها . ان لم نقل نقلها كلها الى اللغة العربية : واجب قومي ، يسهم في بناء مستقبلنا ، ويبرز بعض ما خفي علينا من حضارتنا : ويقوم المعوج من آرائهم ، والملتوي من افكارهم ، ويدعو الى تعاون علمي صحيح ، يؤتي خير الثمار .